زواجه ولا انتصاره في ميدان المعركة الى التلطيف من طباعه . وما ان بدأ به الأمر بموت اناستاسيا حتى كان بديهياً أن يستمر فيه وأن تتفاقم حالته الى الأسوأ بمرور الوقت . وتجنب الناس الدخول في خدمته . ولوث القضية المسيحية فكانت النتيجة ان عاد الصليبي فيشينفتسكي الى وطنه وقدم خضوعه لسيجسموند أوغست . وكان ملك بولونيا مستعداً للتسامح مع هذا الصليبي على شرط أن يخدم في الجيش الليتواني ويقاتل الروس رفاقه السابقين في السلاح . ولكن الرجل الشريف لم يقبل فأسلمه ملك بولونيا الذي لم يكن ذا ذمة ولا عهد الى السلطان التركي الذي دبر له ميتة قاسية .

وهرب الأميران الشركسيان الكسي وغبريال الى بلاد الأعداء ، كما ان من المؤكد ان عدداً كبيراً من الروس تركوا في ذلك الوقت روسيا ووضعوا انفسهم في خدمة بولونيا ، وكان الأشهر من بينهم هو الأمير اندري كوربسكي الذي كان فيما مضى صديقا حميماً للقيصر في زمن الصبا . وقد لجأ الى ڤولمار ودخل في الجيش البولوني . وفي إحدى المرات كتب الى إيڤان من مكان أمين . ويروى ان القيصر عندما تلقى الرسالة ألقى بثقله على العصا الحديدية التي وضعها فوق قدم الرسول الواقف أمامه حتى خرقها ، ثم امر الرسول بفتح الرسالة فجاء فيها ما يلي :

« الى صاحب جلالة كانت فيما مضى صافية وقد جعلها الله مشهورة بفضله ولكنها الآن أظلمت بالخطايا والكراهية الشيطانية التي تحرق قلبها وتميت فيها الضمير . أيها الطاغية الأوحد بين أكثر الأسياد ضلالاً في العالم اسمع هذه الكلمات ! في زحمة الألم الذي يخنقني لا أستطيع أن أكتب إلا القليل من الكلمات ولكنها ستكون الحقيقة . لماذا تغرق في دماء رجال الله الأقوياء وزعماء الحرب الأشداء الذين ارسلهم لك العلي الأعلى سافكاً دمهم المقدس هم الذين حملوا النصر الى كنائس الله ؟. أليسوا متحرقين حمية لقيصرهم ووطنهم ؟. بإشاعات ملفقة وجدت أن